أبو عبيدة بن الجرّاح الفِهريّ

(رضي الله عنه)

فاتح أرض الشام ، أمين هذه الأمة

اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه الله تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العربي – العدد2-المجلد 39 -ص 184 – 199

1383 هـ - 1964 م

قادة الفتح الاسلامي :

أبو عبيدة بن الجراح الفهري

فاتح أرض الشام

« هذا أمين هذه الأمة »

محمد رسول الله

- ٢ -

الإنسان :

١ – كان أبو عبيدة معروق الوجه ، خفيف اللحية ، طوالاً ، أجْنَأ ، أثرم[١] ، وما رؤي أهتم قط أحسن منه[٢] ، وكان يخضب رأسه ولحيته بالحناء والكَتَم[٣] .

وربما كان هناك من يشابهه في صفاته الجسمية وفي مزايا قيادته ، ولكن أبا عُبيدة تفوّق على أقرانه في مزاياه الانسانية ، وحسبه أن يكون فريداً في خلقه حتى بين الصحابة بشهادة رسول الله ﷺ إذ قال : « ما أحد من أصحابي إلا لو شئت لأخذت عليه في خلقه ، ليس أبا عبيدة بن الجراح[٤] » . وكان يدعى بين الصحابة : القوي الأمين ، لقول رسول الله ﷺ لأهل نجران :

---

(١) الاصابة (٤/١٢) وطبقات ابن سعد (٧/٣٨٤) ، ومعروق الوجه : أي قليل لحم الوجه . أجنأ : ناتىء الوجنة . أثرم : انكسرت ثنيتاه .
(٢) أسد الغابة (٣/٨٥) والاستيعاب (٢/٧٩٣) ، وأهتم : انكسرت ثنيتاه .
(٣) الاصابة (٤/١٣) وأسد الغابة (٣/٨٦) ، والكتم : نبت يخلط بالوسمة يختضب به .
(٤) الاصابة (٤/١٢) والاستيعاب (٢/٧٩٣) .

« لارسلنّ معكم القوي الأمين » ولقوله : « لكل أمة أمين ، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح [١] » ، لذلك كان من أحب أصحاب النبي ﷺ إلى النبي ، فقد قيل لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أي أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إليه ؟ فقالت : « أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة بن الجراح [٢] » .

وقد وصفه عبد الله بن عمرو [٣] قائلاً : « أصْبَحُ الناسِ وجوهاً وأحسنهم خلقاً وأشدهم حياءً ثلاثة : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة [٤] » .

---

(١) الاستيعاب (٢/٧٩٣) .

(٢) الاصابة (٤/١٢) .

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص : أسلم قبل أبيه ، وكان فاضلاً حافظاً عالماً ، قرأ القرآن والكتب المتقدمة ، واستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب حديثه فأذن له ، قال : « يارسول الله ! أكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب ؟ » قال : « نعم ، فاني لا أقول إلا حقاً » . وكان يسرد الصوم ولا ينام الليل ، فشكاه أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « إن لعينك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، قم ونم وصم وافطر . صم ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر » فقال : « إني أطيق أكثر من ذلك » ، فلم يزل يراجعه في الصيام ، حتى قال له : « لا صوم أفضل من صوم داود ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً » فوقف عبد الله عند ذلك وتمادى عليه .

واعتذر رضي الله عنه عن شهوده صفين ، وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم ، وأنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه في ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أطع أباك » .

كان أبيض الرأس واللحية ، طوالاً أحمر عظيم البطن ، وقد عمي في آخر أيامه ، وتوفي بالشام سنة خمس وستين وهو يومئذ ابن اثنتين وسبعين . وقد روى عن أبي بكر وعمر . راجع التفاصيل في طبقات ابن سعد (٤/٢٦١) والاصابة (٤/١١١) وأسد الغابة (٣/٢٣٣) والاستيعاب (٣/٩٥٦) .

(٤) الاصابة (٤/١٢) .

لقد كان أحد العشرة السابقين للاسلام[١]، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة[٢]. ولما توفي رسول الله ﷺ، أتى بعض الناس أبا عبيدة ليبايعوه بالخلافة، فقال: «أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة ؟» يريد أبا بكر الصديق، اشارة للآية الكريمة: ﴿ إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا ﴾، وكان عمر ابن الخطاب ممن أتاه يومذاك، فقال: ابسط يدك فلأُبايعك، فانك أمين هذه الامة على لسان رسول الله ﷺ»، فقال أبو عبيدة لعمر: «ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت! أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ؟»[٣]. وبينما كان عمر وأبو عبيدة في هذا الحديث، علما بأن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للمسلمين، فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة أم المؤمنين، وقصدوا سقيفة بني ساعدة، فقال أبو بكر: «ما هذا ! ؟ »، فقال الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير»، فقال أبو بكر: «منا الأمراء ومنكم الوزراء»، ثم قال: «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة»، فقال كل من عمر وأبي عبيدة: «لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر»، فبايعاه[٤].

٣ – وفي خلافة أبي بكر، تولى أبو عبيدة أمر المال[٥]، وهو الذي فرض

---

(١) الاصابة (١١/٤).

(٢) أسد الغابة (٨٥/٣) والاستيعاب (٧٩٣/٢) والسيرة (٣٦٦/٣).

(٣) طبقات ابن سعد (١٨١/٣) والسيرة الحلبية (٣٩٥/٣)، والفهة: هي السقطة أو الجهلة.

(٤) ابن الأثير (١٢٣/٢) والسيرة الحلبية (٣٩٥/٣) واليعقوبي (١٠٢/٢) والاستيعاب (٧٩٣/٢).

(٥) الطبري (٦١٧/٢) وابن الأثير (١٦١/٢).

لأبي بكر قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم في سعة الرزق ولا بأفقرهم وكسوة الشتاء والصيف[1] ، وذلك ليتفرغ أبو بكر لإدارة أمور المسلمين وينصرف عن التجارة حرفته السابقة .

وولاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام ، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك[2] ، لكن أبا بكر أصرّ على رأيه ؛ فلما تحرّج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك ، ولى أبو بكر خالداً منصب القيادة العامة في الشام بدلاً عن أبي عبيدة[3] الذي بقي على جند حمص[4] ؛ ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر[5] وصيّر خالداً موضع أبي عبيدة[6] أي أن خالداً أصبح قائداً مرؤوساً لأبي عبيدة في أرض الشام ، فلم يخبر أبو عبيدة خالداً بعزله إكراماً له وإجلالاً[7] ، فلما علم خالد بعزله واستعمال أبي عبيدة مكانه ، قال الناس : « بعث عليكم أمين هذه الأمة » ، وقال أبو عبيدة للناس عن خالد : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى العشيرة »[8] ... لقد كان كلاهما فوق المناصب ،

---

(١) السيرة الحلبية (٣/٣٩٧) .
(٢) البلاذري ص (١١٦) .
(٣) فتوح الشام للواقدي (١/١٤) والبلاذري ص (١١٧) والأغاني (١٤/٣٦) .
(٤) ابن الأثير (٢/١٥٥) .
(٥) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٧) .
(٦) اليعقوبي (٢/١١٧) .
(٧) ابن الأثير (٢/٣٠٧) ، وفي رواية أخرى أن خالداً علم بعزله قبل أن يعلم به أبو عبيدة ، راجع الطبري (٢/٥٩٠) وابن الأثير (٢/١٥٨) .
(٨) الاصابة (٢/٩٩) وأسد الغابة (٣/٨٥) والاستيعاب (٢/٧٩٤) .

وكلاهما يعتبر المنصب تكليفاً لا تشريفاً ، فلا عجب ألا يؤثر عزل أحدهما في نفسيتيهما ولا في علاقاتهما الشخصية .

وكما كان أبو عبيدة لا يكترث بالمناصب ، كان لا يكترث بمتاع الدنيا من مال وعقار ، فقد أرسل عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار ، وقال للرسول : « انظر ما يصنع ! » فقسّمها أبو عبيدة ، فلما أخبر الرسول عمر ، قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »[1] .

ولما قدم عمر الشام ، تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : مَن ؟ ، قال « أبو عبيدة » ، قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلّم عليه ، فقال عمر للناس : « انصرفوا عنا ! » ، وسار مع أبي عبيدة حتى أتى منزله فنزل عليه ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذت متاعاً — أو قال — شيئاً » ، فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين ! إنّ هذا سيبلّغنا المقيل[2] » .

(١) طبقات ابن سعد (٤١٣/٣) .

(٢) الاصابة (١٢/٤) وأسد الغابة (٨٦/٣) والمقيل : النوم عند الظهيرة ، وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة » ، فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد الا أن تعصر عينيك عليّ ! » . ودخل عمر فلم ير في البيت شيئاً ، فقال : « فأين متاعك ؟ لا أرى إلا لِبْداً وصحفة وشناً — الشن القربة الخلق — وأنت أمير ! أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة الى جونة — الجونة هي سلة مستديرة — فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : « قلت لك انك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين !! يكفيك من الزاد ما بلّغك المحل » فقال عمر : « غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة !! » .

٣ — وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى والإخلاص لعقيدته ، فقد قتل أباه يوم (بدر) لأن العقائد فرّقت بينهما فَفصلت بينهما السيوف ؛ وهو الذي قال لعمر حين أراد الرجوع من حيث أتى لما علِم بانتشار وباء الطاعون في أرض الشام : « أتفرّ من قدر الله ؟ » فقال عمر : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى » وذلك دل على جلالة قدر أبي عبيدة عند عمر [١] . ولما حضرته الوفاة قال : « غفر الله لعمر بن الخطاب رجوعه من (سَرْغ) [٢] » ، ثم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : المطعون شهيد ، والمبطون شهيد ، والغريق شهيد ، والحَرِق شهيد ، والهدم شهيد ، والمرأة تموت بجُمْع شهيدة ، وذات الجنب شهيدة » [٣] ؛ لذلك حرص أبو عبيدة على أن يصاب بالطاعون لينال شرف الشهادة ؛ فقد كان معافى وأهله من الطاعون ، فقال : « اللهم نصيبك في آل عبيدة ، فخرجت بأبي عبيدة في خنصره بثرة فجعل ينظر اليها ، فقيل له : إنها ليست بشيء ، فقال : « إني لأرجو أن يبارك الله فيها ، فانه إذا بارك في القليل كان كثيراً [٤] » .

وأراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الوباء بعد اشتداده ، فكتب اليه : « سلام عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن

---

(١) الاصابة (٤/١١) .
(٢) سرغ : هو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام ، وفيها لقي عمر بن الخطاب أمراء الأجناد ، بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة ، وهناك أيضاً لقي عمر من أخبره بطاعون الشام ، فرجع الى المدينة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٥/٧٠) .
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤١٤) .
(٤) أسد الغابة (٣/٨٦) .

أشاغلك فيها ، فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألاّ تضعه من يدك حتى تُقبل » ، فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ، فكتب اليه : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه ، فخلني من عزيمتك » ، فلما قرأ عمر هذا الكتاب بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟! فقال : « لا ، وكأن قد »[1] ، وفعلاً مات أبو عبيدة بالطاعون سنة ثماني عشرة للهجرة (٦٣٩ م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ابن ثمان وخمسين سنة[2] ، أي أنه ولد سنة أربعين قبل الهجرة (٥٨٤ م) وقبره (بعَمْواس)[3] وهو من الرملة على أربعة أميال مما يلي بيت المقدس[4] ، وفي رواية ان قبره في (فحل) من أرض الاردن ، إذ انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس ، فأدركه أجله (بفحل) فتوفي فيها ، ويقال إن قبره (ببيسان)[5] ، وأرجح أن يكون قبره

---

(١) ابن الأثير (٢/٢١٦) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٤١٤ – ٤١٥) و (٧/٣٨٥) وابن الأثير (٢/٢١٦) ومعجم البلدان (٦/٢٣٦) والإصابة (٤/١٣) وأسد الغابة (٣/٨٦) والاستيعاب (٢/٧٩٤) .

(٣) عمواس : هي كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، وهي على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٢٥) .

(٤) طبقات ابن سعد (٣/٤١٥) و (٧/٣٨٥) .

(٥) الاصابة (٤/١٣) وأسد الغابة (٣/٨٦) ، وقد جاء في الصفحة (٣٧٦) من المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية : « أن أبا عبيدة توفي بالطاعون عام ١٨ هـ في (أمواس) وأن قبره بجامع الجراح بدمشق » .
والحقيقة أن أبا عبيدة توفي بالطاعون الذي ينسب إلى عمواس (لا أمواس كما ترجمت خطأ) وقد تفشى هذا الوباء في أرض الشام فمات به خلق كثير منهم أبو عبيدة .
وهناك قبر ينسب الى أبي عبيدة في غور الأردن ، رمم ضريحه في عهد السلطان بيبرس كما جاء في الكتابة المنقوشة عليه ، وهذه صورة عنها : —

في (عمواس) لأن أكثر المصادر وأوثقها تؤيد ذلك ... فلم تُرَ فجيعة بين المسلمين بعد فجيعتهم برسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق أشد وقعاً عليهم ولا أكثر حزناً لهم من فجيعتهم بهذا الرجل الصادق الأمين . قال معاذ بن جبل[1] يبكيه : « إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أني رأيت من عباد الله قط أقل حقداً ولا أبرّ صدراً ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة منه ؛ فترحموا عليه»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأمر بانشاء هذه القبّة المباركة على ضريح أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ، ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله قيم أمير المؤمنين خلّد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير معل توبين من حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً ، أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدّقين ولا يضيع أجر المحسنين . وذلك بنظر الأمير الأعز الأجـل الكبير نسله ناصر الدين الجاشنكلي الظاهري السعدي نائب مملكة عجلون المحروسة في ذي الحجة سنة ستمائة وسبعة وخمسون » انظر العدد (١٣٩) الصادر في ٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٤-٢ آذار ١٩٣٦ ص (٣٥٩) من مجلة الرسالة المصرية .

(١) معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي : يكنى أبا عبد الرحمن ، وكان طوالاً حسن الشعر عظيم العينين أبيض براق الثنايا . وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود . شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها وبعثه الرسول قاضياً الى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم ، وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاذ : « أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » وقال عنه : « يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء » .
شهد اليرموك وأكثر معارك فتح الشام وتوفي بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وليس له عقب . راجع طبقات ابن سعد (٥٨٣/٣) و (٣٨٧/٧) والاصابة (١٠٦/٦) وأسد الغابة (٣٧٦/٤) والاستيعاب (٣ ٢ ١٤٠) .

(٢) الاصابة (١٢/٤ - ١٣) .

لقد كان أبو عبيدة معروفاً بسلامة الدين وقوة اليقين والخلق المتين ، فكان رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا[١] حسن الخلق متبعاً لأمر رسول الله ﷺ[٢] ولأمر خلفائه من بعده ، وعلى شدة ورعه كان يقول : « والله ما منكم أحد يفضلني بتقى ، إلا وددت اني بسلامة »[٣] . ولم يكتف بإنفاق كل ماله في سبيل الله بل كان يتمنى أن يكون كبشاً يذبحه أهله ، فكان يقول : « وددت أني كبش فذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحَسَوْا مَرَقي »[٤] ، وهذا منتهى نكران الذات والتخلي عن أهواء النفس الأمارة بالسوء .

ولم يكن يضحي من أجل أهله فقط ، بل كان يضحي من أجل المسلمين كافة ، فالمسلمون كلهم إخوته ، لأن المؤمنين اخوة ، ففي عام الرمادة حين أصاب الناس مجاعة وجدب وقحط ، كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من طعام ، فولاه عمر قسمتها فيمن حول المدينة ، فقسمها[٥] ورجع اليه ، فأمر له عمر بأربعة آلاف درهم ، فقال : « لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين ، إنما أردت الله وما قبله ، فلا تدخل عليّ الدنيا » ، فقال عمر : « خذها ، فلا بأس بذلك إذا لم تطلبه ! » فأبى ، فقال عمر : « خذها ، فاني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل

(١) سيرة ابن هشام (٢٩٩/٤) .
(٢) الاصابة (١٢/٤) .
(٣) الاصابة (١٢/٤) وفي طبقات ابن سعد (٤١٢/٣) : « يا أيها الناس ! إني امرؤ من قريش ، وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى الله إلا وددت أني في مسلاخه » .
(٤) أسد الغابة (٨٦/٣) وطبقات ابن سعد (٤١٣/٣) .
(٥) الطبري (١٩٣/٣) وابن الأثير (٢١٥/٢) .

ـ ذلك اليوم الذي لم يثبت فيه إلا أشجع الشجعان ؛ كما كان ذا عقيدة من الطراز الأول يستهين بالأخطار في سبيل عقيدته ، وكان ذا عقلية متزنة وذكاء وقاد لها أثر مهم في اعداده خططه العسكرية الصحيحة ، وكان موضع ثقة الناس وحبهم إلى درجة الافتتان بمزاياه الخلقية والعقدية وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم بالأخطار : « إني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه »[1] ، وهو ما كتبه إلى عمر بن الخطاب حين أراد عمر أن يستخرجه من منطقة الوباء .

لقد كان أبو عبيدة قائداً مكيثاً ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث كما كان يقول عمر بن الخطاب[2] ، وكان قائداً (منضبطاً) يتلقى الأوامر وينفذها بكل أمانة وإخلاص ؛ وقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى يأتيه رأي عمر وأمره[3] ؛ وهذا دليل على شدة ضبط أبي عبيدة وإيمانه بضرورة إطاعة مرجعه الأعلى .

ولعل هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريثه الشديد قبل الإقدام على خوض معركة من معاركه ، والحق ان هذا التريث كان موضع نقد كثير من المندفعين المتحمسين في جيشه ؛ فقد بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق ورجّح خالد بن الوليد ، فغضب معاذ وقال : « أبأبي عبيدة يُظن ؟ ! والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض »[4] . وسمع معاذ رجلاً يقول :

(١) ابن الأثير (٢/٢١٦) .
(٢) الطبري (٢/٦٣١) .
(٣) الطبري (٢/٥٩٦) .
(٤) الإصابة (٤/١٢) .

« لو كان خالد بن الوليد ، ما كان البأس ذو كَوْن » ، وذلك في أثناء حصر أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ : « فإلى أبي عبيدة تضطر المجزة ؟ ! لا أبالك ؟ ! والله إنه لمن خير مَن على الأرض »[1] ، وهذا يدل على مبلغ ثقة كبار الصحابة بقيادة أبي عبيدة وشدة اعتمادهم عليه .

لقد كان من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خطوة يخطونها ، فعندما حشد الروم لاستعادة أرض الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في (حمص) ، أما خالد بن الوليد فأشار عليه بالهجوم على حشود الروم ؛ ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية فاستمد عمر بن الخطاب وأخبره بالموقف الراهن .

وكان بعيد النظر ، يدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات ، لذلك شحن النواحي المخوفة[2] بالرجال للدفاع عنها عند الحاجة ريثما تردهم الإمدادات وبهذه التدابير الاحتياطية لم يستطع العدو في أيامه استعادة أي موقع فتحه المسلمون .

وإذا كان الإيمان بالقضاء والقدر عاملاً من عوامل انتصار المسلمين ، فقد كان أبو عبيدة مثالاً شخصياً رائعاً لرجاله في إيمانه العميق بالقضاء والقدر ، وكم كان مهيباً مؤثراً في نفوس رجاله حين كان يتجول في معسكراتهم وهو يقول : « ألا رُبَّ مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه ! ألا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين غداً ! إدفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات ... » .

وهو بالإضافة إلى ذلك ، كان صحيح القرار غير متسرع في إصداره ، ذا إرادة قوية نافذة ونفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار وشخصية نافذة قوية وقابلية بدنية ممتازة ، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، وله ماضٍ ناصع مجيد .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤١٤) .
(٢) ابن الأثير (٢/١٩٢) .

لهذه الأسباب أمره الرسول القائد في حياته على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات كان أبو بكر الصديق وعمر الفاروق من بين جنوده في بعض تلك الغزوات ، فنجح أبو عبيدة في قيادته نجاحاً باهراً ، لذلك حرص كل من الشيخين غاية الحرص على توليته مقاليد القيادة في أيامهما ، بل رشحاه بكل جدارة لتسنم مقاليد الخلافة ، والخليفة حينذاك هو القائد الأعلى لقوات المسلمين .

لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية (استراتيجية) ممتازة ، فقد بعث بعض القوات لمشاغلة قوات الروم في (فحل) بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها ثم قصد (فحل) بقواته كلها ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في فحل ودمشق على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد .

كما أرسل خالداً على رأس جيش لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجهاً إلى دمشق مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته ، لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آن واحد : من الأمام يقاتل جيش يزيد بن أبي سفيان ، ومن الخلف يقاتل جيش خالد ابن الوليد .

وكان في أعماله الحربية يطبق مبدأ (المباغتة) كما فعل في معركة اللاذقية ، ويعمل على (اختيار مقصده وإدامته) ويبذل أقصى جهده لإكمال (تحشيد قواته) قبل المعركة ، ولكنه كان (يقتصد بالمجهود) ولا يسرف في استخدام قطعات كبيرة بدون مبرر ، ولا يعطي خسائر كثيرة دون جدوى ، وذلك لأنه كان يحرص على استكمال متطلبات (الأمن) لقطعاته حتى تستطيع العمل (بمرونة) و (تعاون) ، كما كان (يديم معنويات) رجاله ويؤمن لها جميع (الأمور الادارية) .

تلك هي مزاياه قائداً ، وهذه هي مبادئ الحرب التي كان يطبقها في معاركه ؛ كل ذلك أدى إلى نجاحه في معاركه التي خاضها ، وهي معارك (استثمار الفوز) ،

أو معارك (التطهير) التي تكون عادة بعد المعارك الحاسمة ؛ فقد فضّل التخلي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة ، واستمدّ أبا بكر ، فأمده بخالد بن الوليد قائلاً : « خالد لها » ؛ فقاد خالد المسلمين إلى النصر المبين في معركة اليرموك بفضل اندفاعه ومجازفته وسرعة قراراته وسرعة حركته واستخدامه أساليب جديدة في القتال ؛ ولكن أبا عبيدة عاد إلى تولي القيادة العامة بعد اليرموك ، فخاض معارك استثمار الفوز بنجاح باهر يكاد يعتبر فوزاً عسكرياً إذا أدخلنا في حسابنا تفوّق الروم الساحق على المسلمين ، وسرعة انجاز الفتح ، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحى بها المسلمون من أجل فتح بلاد الشام كلها .

لقد جاهد أبو عبيدة في سبيل الله أعظم الجهاد ، وبقي يجاهد إلى آخر لحظة من حياته ، فسقط صريعاً بالطاعون ، ولم يسقط من يده السيف .

أبو عبيدة في التاريخ :

يذكر التاريخ لأبي عبيدة جهاده الطويل لإعلاء كلمة الله بسيفه ولسانه في عهد الرسول ﷺ ، فكان موضع ثقة النبي ورضاه وإعجابه الشديد بخلقه الكريم وجهاده العظيم وإخلاصه لله ولرسوله .

ويذكر له موقفه الرائع في سقيفة بني ساعدة ، ذلك الموقف الذي كان من عوامل جمع شمل المسلمين ووحدة صفوفهم وعدم تفرقهم بعد النبي ﷺ .

ويذكر له فتحه أرض الشام : سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، تلك المنطقة التي أمدّت المسلمين بسيل جارف من المجاهدين بسيوفهم وبسيل جارف من المجاهدين بأقلامهم .

وكأني بأبي عبيدة يناي من وراء الغيب : هل فتحنا فلسطين ليسلمها أبناؤنا لليهود ؟ واحسرتاه ! وا أسفاه !! .

وربما كان لأبي عبيدة من ينافسه في مزايا قيادته ، ولكن لا أحد في الصحابة ينافسه في مزايا خلقه ، فقد كان فريداً في خلقه القويم بشهادة رسول الله ﷺ .

ويذكر التاريخ له أنه كان أحد العشرة السابقين للإسلام وأحد العشرة المبشّرين بالجنة ؛ وانه لم يعش لنفسه بقدر ما عاش للناس ، فرض الجهاد على نفسه ، فلم يكن يستطيع منه خلاصاً ، فعاش مجاهداً ومات مجاهداً ، ولم يختره الله لجواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان وفي كل قلب : رمزاً للجهاد الصادق والإيمان العميق والخلق العظيم .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، المحدث الفقيه ، المؤمن الصادق ، القوي الأمين ، المجاهد الشهيد ، القائد الفاتح ، أبي عبيدة بن الجراح .

محمود شيت خطاب

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ نيسان « ابريل » سنة ١٩٦٤ م   ١٩ من ذي القعدة سنة ١٣٨٣ هـ

فارس العرب !

لوسكر الدهر من ذكراكِ ياحلبُ   لكان للدهر منكِ الخمرُ والعنبُ
هــذا دويُّكِ والدنيا تردّده   تكاد تهتزُّ من أهواله الحقب
ما كان أمسكِ الا أمس ملحمةٍ   غنّى بها السيفُ والأقلامُ والكتب
لولا الليالي التي كابدتِ ظلمتها   ما كان للعرب بين الروم مضطرب
فلو سألت دروب الروم عن بلدٍ   ذلّتْ به الروم قالت: حسبكم حلب!
أعدتِ ذكرى بني حمدان وارفةً   ذكراهمُ الجودُ والعلياء والأدب
كانوا الملوك وتاج الملك فوقهمُ   تزهى به الأرضُ والأفلاك والشهب
حصنُ العروبةِ لم يهدم عروبتهم   نومٌ على الضيم والدارات تغتصب